# ﴿ مباحث في الحديث ﴾

(الحديث) هو في اللغة الكلام والخبر وفى الشرع اسمٌ لما بَلَغَنا من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله ويسمى السُنّة أيضا

## علوم الحديث

ينقسم علم الحديث أولا الى قسمين أصليين : (١) حديث رواية ، وهو علم يُبحث فيه عن كيفية اتصال الحديث بالرسول صلى الله عليه وسلم من حيث أحوال رُواته ضبطاً وعدالة ومن حيث كيفية السنَد اتصالا وانقطاعا ونحو ذلك (٢) حديث دراية : وهو علم يُبحث فيه عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث والمراد منها مبنياً على قواعد اللغة العربية ، وضوابط الشريعة ، ومطابقاً لأحوال النبي صلى الله عليه وسلم . وينطوي تحت كل قسم من هذين القسمين مباحث ذات موضوع خاص أصبح كل منها كأنه علم قائم برأسه وهي :

(١) علمُ رجال الحديث : وهو عبارة عن تاريخ حياة رواة الحديث مع ذكر مذاهبهم التي يجوز معها قبول روايتهم أو لا يجوز ، وذكر مستندهم ، وكيفية أخذهم الحديث

(٢) علم الجرح والتعديل : وهو عبارة عن ذكر أوصاف الراوي التى تقدح في عدالته ، وتحطّ من قدر حديثه . أو هي بالعكس : تقرّظه وتحقق عدالته ، وترفع من قدر حديثه ، وبيان جواز هذا القدح والمدح في الشرع لضرورة المصلحة ، وبيان طبقات المجروحين

(٣) العلم بجواز رواية الحديث بمعناه أو لفظه أو الزيادة فيه ، والحذف منه ، والاقتصار على بعضه

(٤) العلم بكيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض قراءةً أو سماعاً أو مناولةً أو

كتابة أو إجازة

(٥) العلم بناسخ الحديث ومنسوخه . ويتبع ذلك معرفة الزمن الذي ورد فيه الحديث عنه صلى الله عليه وسلم وأسباب وروده ، ومعرفةُ هذا من أهمّ علوم الحديث وأصعبها

(٦) العلم بحالة الحديث قوةً وضعفاً ، وتحديد درجة العمل به وهو بهذا الاعتبار ينقسم الى ثلاثة أقسام كبرى : (١) الحديث الصحيح وهو ما اتصل إسناده بالنبي صلى الله عليه وسلم وكانت رواته ثقات (٢) الحديث الحسن وهو ماتصل إسناده وكان في رواته من هو مستور الحال (٣) الحديث الضعيف وهو ما اتصل إسناده وكان في رواته من هو مطعون فيه . وكل من هذه الاقسام الثلاثة ينقسم الى عشرة أقسام لا يسع المقامَ بيانها . أما ( الحديث الموضوع ) فهو المكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز العمل به ، بل لا تجوز روايته الا لاعلان أنه كذب ، وقد تكفّل ببيان ما ذكرنا كله ( علمُ أصول الحديث ) المسمّى ( مصطلح الحديث أيضاً )

## كتابة الحديث وتدوينه

مرّ في بحث القرآن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهى الصحابة رضي الله عنهم عن كتابة الحديث مخافةَ اختلاطه بالقرآن ، فأمسكوا عن ذلك . وقلدهم التابعون في هذا الامساك مدة القرن الأول . واقتصروا على حفظه في صدورهم حتى انتشر القرآن بين المسلمين شرقاً وغرباً ، وحذَقه كبارهم وصغارهم وكتبوا منه المصاحف الكثيرة ولم يعد يُخشى اشتباه آياته بالأحاديث ، ومن جهة ثانيةٍ تفرّق حَمَلة الحديث في الأقطار البعيدة ، ومات الكثيرون منهم ، لا سيما الذين توفَّرت الثقة بهم لاجتماعهم بالصحابة ، وأخذهم الحديث عنهم ، فخيف أن يكثر هذا النقص في الحُفَّاظ والرواة ويضيع الحديث جملةً اذا بقي من دون

جمعٍ أوتدوين . وهو ثاني أصول الاسلام التى يرجع اليها في استنباط الأحكام. كل هـذا جعل امراء الاسلام وعلماءه يفكرون في جمع الأحاديث ومبادرة تدوينها كتابة وتعليقاً. وكان أولَ من انتبه الى هذا الأمر عُمَرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه ( ووفاته سنة ١٠٣ هـ ) فقد كتبَ الى أبي بكر عمرو بن حزم يقول: « انظر الى ما كان من حديث الرسول أو سنته أو حديث عمر أو نحو هـذا فاكتبه لى فاني خِفتُ درس العلم وذهاب العلماء »

وأول من وضع علم الحديث روايةً ودرايةً هو ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ( ١٢٤ هـ ) وأول من صنّف في الحديث ابن جُرَيج المتوفى سنة ( ١٤٩ هـ ) وعلى هذا قول صاحب الارجوزة :

(وابن جريج أوّلُ الّذينا  قد دوّنوا العلمَ لنا تدوينا)

لـكن أول من صنف في الحديث كتابا مدوّنا وصل الينا هو الإمام مالك رضى الله عنه : أشار عليه به الخليفة المنصور العباسي لما حجّ سـنة ( ١٦٣ ) هـ فقال له « دوّن لنا في هذا العلم كتابا : تجنّب فيه شدائد ابن عمر، ورُخَص ابن عباس، وشواذّ ابن مسعود . والزم وسَطَ الأمور وما اجتمع عليه الائمة والصحابة فنحمل الناس إن شـاء الله على كتابك ، ونبثه فى الأقطار ، ونعهد اليهم أن لا يقضوا بسواه »

## العناية بجمع الحديث وتصحيحه

بعد أن انتشر كتاب ابن جريج وموطّأ مالك نشطت الهممُ لتلقى الحديث وحفظه وضبطه وتعليقه : فجعل أحدهم يرحل المراحل ، ويقطع الفيافي والمغاور ، ويجوب البلاد شرقا وغرباء من أجل حديث واحد . وزادهم عنايةً وحرصاً على ذلك انتشار أحاديث باطلة وضعَها أقوام لاخلاق لهم بقصد ترويج فكرة سياسيةٍ أو دينية ، أو يُريدون أن ينهوا العامة عن منكر يفعلونه فيضعوا حديثاً

فيه ليزدجروا عنه . فانبرى علماء الحديث من يومئذ لمقاومة هؤلاء المفسدين ، وجعلوا ينقدون الأحاديث ، ويبيّنون غثّها من سمينها ، ويميزون صحيحها من فاسدها ، ويدوّنون ذلك في الكتب المعتبرة

## أشهر هؤلاء العلماء وأشهر الكتب فى علم الحديث

انتهت العناية في خدمة الحديث وتمحيصه وتدوينه الى الشيخين الجليلين صاحبي الصحيحين : أبي عبد الله البخاري المتوفى سنة ( ٢٥٦ هـ ) ، ومسلم بن الحجاج المتوفى سنة ( ٢٦١ هـ ) . فالبخاري اشترط في الحديث الذي اختاره لصحيحه شرائط تمَّ له بها بضعة آلاف حديث من ستين الف حديث كان حفِظها ، ومسلم كذلك من ثلاثمائة الف حديث وهكذا غيرهما

ومن كتب الحديث المعتبرة بعد الصحيحين مساند أبي داود المتوفى سنة ( ٢٧٥ هـ ) والترمذي المتوفى سنة ( ٢٧٩ هـ ) والنَّسائي المتوفى سنة ( ٣٠٣ هـ ) وابن ماجه المتوفى سنة ( ٢٧٣ هـ ) وهؤلاء الأربعة لم يقتصروا في مساندهم على الحديث الصحيح كما فعل الشيخان بل توسعوا فى الشرائط وأضافوا الى الصحيح ما توفَّرت فيه شروط العمل كالحديث الحسن ، ومساندُهم هذه تسمى ( كتب السُّنن ) وهى معتبرة أشدّ اعتبار في الامة ، وهناك مساند أخرى تلحق بهذه الست : وهى مسند الدار قطني المتوفى سنة ( ٣٨٥ هـ ) ومسند الامام أحمد المتوفى سنة ( ٢٤١ هـ ) . ومن مشاهير علماء الحديث سفيان الثوري المتوفى سنة ( ١٦١ هـ ) وابن عيينة المتوفى سنة ( ١٩٢ هـ ) ويحيى بن معين المتوفى سنة ( ٢٣٣ هـ ) وشعبة وابن المبارك والليث وغيرهم

## نموذج من عناية المسلمين فى عصرهم الاول بحفظ حديث نبيهم ﷺ

خرَج طُلاب الحديث الى سفيان بن عيينة ، فازدحموا عليه للأخذ عنه

وكأنّهم ضايقوه في الزحام واللّجاج فتوعّدهم قائلا « لقد هممتُ أن لا احدّثكم شهراً » فانبرى له منهم شابّ عراقيّ وقال له « يا أبا محمد : ألنْ جانبك ، وحسّن قولك ، وتأسّ بصالحي سلفك ، وأجْمل مجالسة جلسائك : فقد أصبحتَ بقية الناس ( يعني بهم علماء الحديث ) وأميناً لله ورسوله على العلم ، واللهِ ! إن الرجل ليُريد الحجّ فتتعاظمه شقّته ( أي تعظم عليه المسافة ويهوله أمرها ) حتى يكاد أن يقيم ، فيكون لقاؤه إيّاك ، وطمعه فيك أكثر ما يحركه عليه » ( يعني إنهم انما يزيدُهم رغبةً في الحج لقاؤه وحرصهم على تلقي الحديث عنه ) فلما سمع ابن عيينة من الشابّ هذا القول خضع ورقّ وبكى وتمثّل بقول حارثة ابن بدر :

( خلَت الديارُ فسُدْتُ غيرَ مُسَوَّد ومن البلاءِ تفرُّدي بالسُؤْدَد )

ثم حدّثهم بكل ما أرادوا الى أن رحلوا

## علم الحديث في القرون الوسطى

ما كادت تنقضي القرون الاولى التي ذكرنا رجالها حتى انقطع تخريج الحديث واستدراكه على المتقدّمين ، وانصرفت العناية الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها ، والنظر في أسانيدها الى مؤلفيها ، واستظهار متون الأحاديث وحفظها . ولهم في ذلك مراتب ودرجات : فمَنْ حفِظ منها مائة الف حديث متناً واسناداً سُمّي ( حافظاً ) ، والذي يُحيط علمه بثلاثمائة الف حديث يسمى ( حجة ) . وأكبرُ هؤلاء الحفاظ الامام النووي المتوفى سنة ( ٦٧٦ هـ ) وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ( ٨٥٢ هـ ) في المتوسطين . والشيخ السيوطي المتوفى سنة ( ٩١١ هـ ) والشيخ المناوي المتوفى سنة ( ١٠٣١ هـ ) في المتأخرين

## علم الحديث في العصور المتأخرة

لما تقرَّرت الأحكام الفقهية ومسائل الفروع ودُوِّنت في كتبها المعلومة اشتغل الناسُ بها وانكبُّوا على تحصيلها ، توصلاً الى مصالحهم الدينية والدنيوية وكان معظم هذه الأحكام والفروع انما اخذ من الحديث ـ رأى علماؤنا المتأخرون أن الرجوع الى النظر في كتب الحديث والتعمق في درسها قد ينبه الاذهان الى مباحث ومسائل لم تُدوَّن في كتب الفروع ، ولم يقُل بها أرباب المذاهب المشهورة ، فيحدث من جرّاء ذلك نزاع وجدال بين المسلمين بل ربما أدَّى الى قيام فِرَقٍ ومذاهبَ جديدةٍ في الاسلام ، فأعلن هؤلاء العلماء وجوب التقليد على الامة ، وسدّ باب البحث والنظر المؤدّي الى الاجتهاد والاستنباط ، لا سيما انهم يرون أن للاجتهاد شروطاً لم يعد توفّرها ممكناً في واحد من الناس اليوم . وسدُّ باب الاجتهاد على هذه الصورة أدّى بالضرورة الى ترك النظر في كتب الحديث وهجر دراسته ، وكاد ذلك يقع في القرآن نفسه لولا أن القرآن يتلى في الصلاة وخارجها للتعبّد والتقرب الى الله

## هل يدوم هجر كتب الحديث طويلا ؟

كلا : فان علماء هذا العصر الحريصين على مصلحة المسلمين وَلَمّ شعثهم الديني والاجتماعي والاخلاقي أحسّوا في هذه الأزمنة المتأخرة بلزوم الرجوع الى القرآن وكتب الحديث لاستنباط أحكامٍ استدعاها تغير الزمان تغيراً لم يعرفه أئمتنا السابقون ، ولم تكن أسباب هذه الأحكام الطارئة موجودةً في زمانهم حتى يقرّروا لها أحكاماً . أو كانت موجودةً ولكن على غير الوجه الذي أصبحت عليه اليوم ، وسيكون العملُ بالكتاب والسنة على هذه الصورة بإجماع علماء الاسلام ، واتفاق آرائهم عليه ، وبذلك يعود للشريعة الاسلامية المطهرة نفوذها في بلاد المسلمين ، وتصبح المحور الذي تدور عليه مصالحهم ومرافقهم الى يوم الدين إن شاء الله تعالى